الذاكرة وتداعيات المكان
في السيرة الذاتية السعودية
قراءة في (واستقرت بها النوى) لحمزة المزيني

بقلم الدكتور

سالم بن محمد بن سالم الضمادي

أستاذ الأدب والنقد المساعد كلية الآداب والفنون ، جامعة حائل

المملكة العربية السعودية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الرابع (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الذاكرة وتداعيات المكان في السيرة الذاتية السعودية
قراءة في (واستقرت بها النوى) لحمزة المزيني

سالم بن محمد بن سالم الضمادي
قسم الأدب والنقد ـ كلية الآداب والفنون ، جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : salem9355@hotmail.com

الملخص

تهدف الدراسة إلى الكشف عن طبيعة توظيف المكان في سيرة حمزة المزيني الذاتية، وطبيعة إعادة المخزون في الذاكرة عن المكان، وتمثلات حضوره المتنوع بين البيت والقرية وأماكن الدراسة بالداخل والخارج، وتمركزات المكان في كل تلك المحطات.

والنظر في الدلالات العميقة، والنسق المضمر في تداعيات المكان حيث التجاوز لأبعاد المكان المحدود في حواجز محسوسة وتخطيها لتمثل آثار المعاني العميقة التي سعى الكاتب إبرازها في صورة البناء اللغوي لحظة إنتاج السيرة، وتفاعل الكاتب مع الشخصيات التي التقى بهم في تلك الأماكن، والاحتفاظ بالأدوار للشخصيات المختلفة.

والبحث يقوم على المنهج الإنشائي من خلال تحليل النصوص المستقاة من السيرة الذاتية، ومدى وفائها بالمعاني المقصودة، والمنهج النفسي الذي يتعمق في قراءة النصوص، والوقوف على دلالاتها وظلالها.

الكلمات المفتاحية: الذاكرة، الذات، السيرة الذاتية، المكان، النوى.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

٤١١٠

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Memory and the repercussions of place in the Saudi biography,A reading of Hamza Al-Muzaini's (And the Cores Stabilized).

Salem bin Mohammed bin Salem Al-Dhamadi

Assistant Professor of Literature and Criticism ,College of Arts and Sciences, University of Hail - Kingdom of Saudi Arabia

Email: salem9355@hotmail.com

Abstract

The study aimed to reveal the nature of the use of the place in the biography of Hamza Al-Muzaini, the nature of re-stocking in the memory of the place, the representations of his diverse presence between the house, the village, and the places of study inside and outside, and the concentrations of the place in all of these stations.

And looking at the deep connotations, and the implied pattern in the repercussions of the place, where the transgression of the dimensions of the limited place in tangible barriers and transcending them to represent the effects of the deep meanings that the writer sought to highlight in the form of linguistic construction at the moment of producing the biography, and the writer's interaction with the personalities he met in those places, and the retention of roles for the different personalities . from the autobiography, and the extent to which they fulfill the intended meanings, and the psychological approach that goes deeper into reading the texts, and standing on their implications and shades.

Keywords: memory, self, biography, place, nuclei. .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يشغل المكان حيزا كبيرا في العمل السردي، وتتنوع وظائفه بحسب وروده وتكراره وتركيز الكاتب عليه، وقد يدل على المحبة أو التقرب. والمكان هو سلسلة من الأنماط الشيئية التي تحتل حيزا ولها أبعادها وخصائصها المادية، ففهم المكان قائم أولا على الخبرة والتجربة.. وبذلك يصبح المكان إطارا للأشياء، ينطوي عليها ويبرزها، ويصبح التعبير مكانا هو تعبير عن خصائص الموضوعات المادية المحيطة بنا والتي سرعان ما تكون صلاتنا به(١).

والمكان حياة بلا حدود، به كل إحساسنا وما يدور بخلدنا في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو حكائي قائم بذاته، بجوار عناصر السرد الأخرى كالزمن، والحدث والشخصيات. ويتنوع المكان بحسب الإحساس النفسي، فضلا عن المحسوسات التي نراها، فقد يكون مكانا هندسيا وهو ما يقوم به الكاتب بتفصيل أبعاده الحقيقية، ويمكن أن يكون مكانا مجازيا حين يكون مساحة خيالية لعرض الأحداث، وليس عنصرا ماثلا في الحقيقة.

ولما نظرت في السير السعودية وجدت لهم اهتماما كبيرا بالمكان كفضاء يحمل بين طياته الكثير من الظلال والإيحاءات، واسترجاع الماضي وتذكره لسرد أحداث يهدف من خلالها إرسال العديد من الجوانب التوجيهية والإرشادية.

---

(١) ينظر: عبقرية الصورة والمكان، طاهر عبد مسلم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٦.

ولا شك أن المكان في السيرة الذاتية يقوم على تذكر الأحداث والتجارب الشخصية، ولكن المكان يحضر بصورة فاعلة في (واستقرت بها النوى) لحمزة المزيني حيث يسرد صلته بالأماكن التي كانت لها تأثير بالغ في مسيرة حياته في الطفولة ومراحل التعليم المختلفة. وما يدل على ارتباط المزيني بالمكان التوسع في أوصافه والحالات التي عاشها بأشكالها المتنوعة.

وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على طبيعة تشكل السيرة السعودية وأبعادها المختلفة، وخصائص الفضاء المكاني وحضوره في سيرة المزيني، والأبعاد الإيحائية والرمزية التي قصد الكاتب إيصالها للمتلقي، والأهداف التوجيهية والاجتماعية المتنوعة عبر الأماكن التي سردها، ومدى براعة الكاتب في توظيف المكان للكشف عن مقاصده وأغراضه، والتعرف على أنماط المكان وظلاله النفسي والاجتماعي.

وتسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن عدد من التساؤلات، أهمها: ما أهمية المكان في السيرة الذاتية بعامة، والسيرة الذاتية السعودية بخاصة؟ ما تداعيات المكان في السيرة الذاتية للكاتب؟ ما خصائص المكان في المراحل التعليمية في الداخل والخارج عند الكاتب؟ هل كان المكان قاصرا على الحيز الجغرافي أو كان وعاء مركزيا للتعبير عن المعاني النفسية المختلفة؟ هل كان المكان في سيرة الكاتب مرآة تعكس الجوانب الاجتماعية والثقافية والفكرية لدى الكاتب؟ هل استطاع الكاتب أن يغذي المكان بإحساسه ومشاعره تجاهه؟

ومن خلال تتبع الدراسات في السيرة الذاتية السعودية لم أجد دراسة علمية مستقلة عن أبعاد المكان ودلالته في سيرة (واستقرت بها النوى)

لحمزة المزيني، فضلا عن ما وجدته من خصوصية إبداعية لدى المزيني، حيث ينقل إحساسه بالمكان قبل أن يصف المكان وأبعاده الحسية.

والدراسة تقوم على المنهج الإنشائي الذي يتجلى في تتبع المكان بأشكاله الهندسية، وأبعاده الجغرافية، واستحضار الدلالات والمعاني الخفية، لكشف مدى نجاح المزيني في تتبعه مستويات المكان وتنوعه، فضلا عن الاستعانة ببعض المناهج المختلفة ،كالمنهج النفسي وتأثيره في تشكل الأماكن عند الكاتب.

وقد توزعت الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث، ففي المقدمة ذكر أهمية الموضوع وخطة الدراسة، ويتضمن المبحث الأول مفهوم السيرة الذاتية وبيان لأهم الدوافع لكتابة السيرة الذاتية لدى الأدباء، والوقوف على أبرز الدوافع التي شجعت حمزة المزيني إلى كتابة سيرته، وفي المبحث الثاني مسرد تاريخي لكتابة السيرة الذاتية السعودية ومراحل تطورها، وفي المبحث الثالث الكشف عن حضور المكان في السيرة وأبعاده في (واستقرت بها النوى)، ثم أنهيت البحث بخاتمة تضمنت أبرز النتائج والتوصيات، وثبت للمصادر والمراجع.

المبحث الأول- السيرة الذاتية: المفهوم والدوافع

يكاد يجمع المهتمون بدراسة السيرة الذاتية على القول بأن موضوع قد نشأ في أوروبا، وأنه ينتمي إلى الثقافة الغربية، وأن الباعث الأساسي على قيامها هو ما نالته آثار (روسو) المنشورة بعد وفاته من شهرة ورواج(١).

وقد تسربت إلينا بعد اتصالنا بالغربيين، واطلاعنا على أحوالهم وإنتاجهم الأدبي والفكري. ولهذا السبب كان الحديث عن جنس السيرة الذاتية قبل اعترافات (روسو) التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر ضربا من المجازفة؛ إن لم نقل من قبيل المفارقة التاريخية(٢).

وترجع صعوبة تحديد ماهية جنس السيرة الذاتية إلى سببين رئيسين: الأول يتعلق بطبيعة هذا الجنس الزئبقية، والآخر يرجع إلى تنوع الدراسات التي طبقها عليه الدارسون والنقاد(٣). فقد عرف فليب لوجون السيرة الذاتية بأنها: "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وتاريخ شخصيته، بصفة خاصة"(٤).

---

(١) ينظر: السيرة الذاتية: جورج ماي، تعريب: د. محمد القاضي د. عبد الله صولة، نادي أبها الأدبي، أبها، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٢٩-٣٣.

(٢) ينظر: السيرة الذاتية: مقاربة الحد والمفهوم، د. أحمد آل مريع، د.ن، الرياض، ط٥، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص١٠.

(٣) ينظر: كتابة الذات: دراسات في السيرة السعودية، د. صالح الغامدي، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣م، ص١١.

(٤) السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، فليب لوجون، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤م، ص١٠.

أي أن السيرة الذاتية تقوم على أربعة ركائز هي: شكل اللغة بين الحكي والنثر، والموضوع المطروق بين حياة الفرد وتاريخ شخصيته، ووضعية المؤلف يجب أن يكون الكاتب متطابقا مع الراوي، وموقع الراوي يجب أن يكون متطابقا مع الشخصية الرئيسية ومتشبثا بالمنظور الاستعادي للحكي(١).

ويعرفها محمد الباردي بأنها: "حكي استعادي نثري بأشكال سردية متنوعة يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص والعام وذلك عندما يركز على حياته الفردية والجماعية وعلى تاريخ شخصيته الجزئي أو الكلي"(٢). ورغم اختلاف التعريفات المقدمة للسيرة الذاتية فإنها تنهض على تسليم ضمني بالتطابق بين الذات التي تروي في الحاضر قصة وجودها الشخصي والذات المتحدث عنها في الماضي(٣).

وكاتب السيرة الذاتية يحرص في مقدمته على بيان ظروف الكتابة ومبرراتها الذاتية والخارجية. وهي مبررات ذاتية حينا تتعانق بعلاقة الذات الكاتبة بها، ومبررات خارجية حينا آخر تعلن عن تفكير الذات في الآخرين والعالم المحيط(٤).

---

(١) ينظر: سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام، شكري المبخوت، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م، ص١١.

(٢) عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. محمد الباردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٧٩.

(٣) ينظر: معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٦١.

(٤) ينظر: السرد والتاريخ والتخييل، د. نور الدين بنخود، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص١٠٧.

وتشير مقدمات السير الذاتية إلى دوفع الكتابة التي قد تظهر أحيانا، وتختفي أحيانا أخرى، ومن أبرز تلك الدوافع: الاحتفاء بالأنا وهي حالة نفسية يشعر بها الكاتب والتي تصل بها رغبته إلى الفطرية بالخلود، حتى يشعر بالتفرد والتميز، عندها يقوى إحساسه بأنه إنسان يستحق البقاء خاصة إذا شعر بدنو أجله، وقد يتولد عنده ذلك الشعور لأسباب مبهمة(١)، أو تلك اللذة الفنية المتمثلة في فعل الكتابة ذاته والتي تبلغ أقصاها في كتابة السيرة الذاتية، حيث يستحضر الذكريات السعيدة التي عاشها(٢)، أو اطلاع المتلقي على تجربته في الحياة، والكشف عن أشجانه وآلامه، وقدرته على تجاوز الصعاب، فضلا عن حب الإنسان للحديث عن نفسه(٣)، أو رصد الأحداث التاريخية التي أحاطت بكاتب السيرة فهي بمثابة شهادة على العصر(٤)، أو الرغبة في تعليم الآخرين وتوجيههم، أو استجابة لطلب الأصدقاء في كتابة سيرته إرضاء لهم(٥)، أو التفسير، والتعليل، والاعتذار، والتبرير(٦).

---

(١) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٥.

(٢) ينظر: عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. محمد الباردي، ص٦١.

(٣) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. شعبان عبد الحكيم، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٥م، ص٩٧.

(٤) ينظر: أدب السيرة الذاتية، عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩١م، ص١١٣.

(٥) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، ص٢٦.

(٦) ينظر: فن السيرة، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص١١٨.

ومن خلال النظر في سيرة حمزة المزيني[١] (واستقرت بها النوى) نلحظ أن الكاتب قد وظف العديد من الدوافع في سرده لسيرته الذاتية، فنجد الحديث عن ظروفه ومعاناته وتحولاته في مراحل التعليم المختلفة. ومن ذلك تصويره لمراحل حياته وظروف مجتمعه، فنراه يقول: "وربما تكون محاولة لتصوير المرحلة الانتقالية المهمة تلك. فلو لم يكن من سبب لكتابتها إلا أنها محاولة لرصد حياة ذلك الجيل لكان ذلك سببا معقولا"[٢].

وعمد الكاتب إلى الاعتراف بالجميل بحق أسرته له فيقول: "فسيرتي هذه إنما تمثل أطرافا من سيرة حياة أبي وأمي وأخي سالم وأخي حامد (رحمهم الله). أولئك النفر الكريم الذين كانوا الحضن الدافئ الذي ترعرعت فيه وجعل من الممكن أني أحيا حياة مختلفة... لقد مثل هؤلاء الكرام الحلقة الذهبية في سلسلة الانتقال بين نمطي الحياة اللذين أشرت لهما. وأشعر بكل

---

(١) حمزة بن قبلان المزيني (١٩٤٤م- ٠٠٠)، أكاديمي، ولغوي، وكاتب، ومترجم، ولد في المدينة المنورة، حاصل على الدكتوراه في تخصص اللسانيات من جامعة تكساس في أوستن، رشحت رسالته لجائزة رسائل الدكتوراه المتميزة في جامعة تكساس، عمل أستاذا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود. له نشاط في الملتقيات والمؤتمرات داخل الوطن وخارجه، ونشاط في الصحافة المحلية، بين التحليل والنقد اللغوي لبعض المؤلفات التي تمس تخصصه في علم اللغة العام، إضافة إلى نقد المناهج وأسلمة العلوم، وله في هذا المجال باع واسع بما كتب من المقالات العلمية المنشورة في الدوريات العالمية، وقد أصدر (١٦ كتابا)، وترجم (٢٣ كتابا وفصلا ومقالة) من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وأغلبها للغوي الأمريكي المعروف (نعوم تشومسكي). ينظر: قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٤ه/٢٠١٣م، ١٥٢٦/٣. وينظر: واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، دار مدارك للنشر، الرياض، ط٢، ٢٠٢١م، ص٥٩٤.

(٢) واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٥٤٧.

صدق أن تسجيل ما سخوا به أهم من تسجيل أحداث سيرة حياتي"[١]. كما اعترف بفضل وزوجته عليه: "كما أشكره تعالى أن رزقني زوجة حملت عني كثيرا من أعباء البيت وتربية الأبناء، ووفرت لي الجو لأنصرف إلى ما أشتغل به من عمل أكاديمي"[٢].

ومن الدوافع التي سردها في سيرته إحساسه باللذة الفنية، والوصول إلى أهدافه: "لهذا كنت أقول لأخي خلف (رحمه الله) إني أشعر في عملي في الجامعة كأني في إجازة دائمة لأن العمل أستاذا في الجامعة لا يخضع لقيود البيروقراطيين في الحضور ولا الانصراف، ولا يخضع إلا للرقابة الذاتية في أداء العمل على وجهه الصحيح، ويسمح بالعيش في بعض الفترات في (برج عاجي) ينسي لساعات كثيرة منغصات الحياة خارج أسوار الجامعة"[٣].

ونرى رغبة الكاتب في اطلاع المتلقي على تجربته الحياتية، والرغبة في تصحيح المفاهيم، فنراه يقول: "كنت فيما أكتبه أحاول المساعدة في كشف بعض أوجه القصور المعيقة في ثقافتنا، وفي أداء بعض الجهات الحكومية. وكنت أرى نفسي أقوم بدور هيأني له ما حصلت عليه من معرفة نسبية لإبداء وجهة نظري في بعض القضايا الوطنية والعلمية والتعليمية والثقافية والاجتماعية"[٤].

---

(١) واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني ، ص٥٤٧.

(٢) السابق، ص٥٤٨.

(٣) السابق، ص٥٤٨.

(٤) السابق، ص٥٤٩.

المبحث الثاني- السيرة الذاتية السعودية: البداية والتطور

بدأ ظهور أدب السيرة الذاتية في الأدب السعودي في مطلع سبعينيات القرن العشرين، وكغيره من الأشكال الأدبية الأخرى، الرواية والقصة في النشأة التي تبدأ بالضعف الفني، وما تلبث إلا أن تستقيم في فنيتها وتقنياتها، ولكل بداية عوامل تسهم في نشأته؛ ليحقق جماليته ودلالته الأدبية، ومن أبرز تلك العوامل التي أسهمت في نشأته وتطوره: التعليم، والصحافة، والمكتبات، والنشر، عوامل شاركت فيها السيرة الذاتية أشكال الفنون الأدبية في الأدب السعودي، وحققت للسيرة الذاتية مكانتها.

ولعل أول النصوص السيرية في السيرة الذاتية السعودية نص (أبو زامل) للأديب أحمد السباعي -بحسب اعتبار الحيدري- الذي عد هذا النص البداية الحقيقية للسيرة الذاتية السعودية عام ١٣٧٤هـ، ومن ثم توسع فيها السباعي ووضع عنوانها (أيامي) بعد سنوات، وقد تتالى ظهور النصوص السيرية من مثل: نص (هذه حياتي) لحسن كتبي عام ١٣٧٦هـ، ونص (مذكرات طالب) لحسن نصيف عام ١٣٧٦هـ، ونص (أشخاص في حياتي) لحسن كتبي عام ١٣٧٩هـ. وقد أطلقت على هذه الفترة الباحثة: "عائشة الحكمي" مرحلة الطفرة[١].

مرحلة نتاج ازدهار حركة الصحافة والحركة الثقافية والتأليف، وتأثر الكتّاب بأقرانهم في الوطن العربي، الذي أتاح لهم كتابة سيرهم الذاتية،

(١) ينظر: السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية، د. عائشة الحكمي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٦ه/٢٠١٥م.

فكتبوا ترجمات عن أنفسهم موجزة في مقالات، عدها بعض النقاد[١] ملامح من السيرة الذاتية. فهم قرأوا سير الأدباء العرب، من مثل: (الأيام) لطه حسين، و(حياتي) لأحمد أمين و(أنا) للعقاد، وغيرهم من الأدباء واستثمروا كتابات هؤلاء الأدباء في الصحف ومنشوراتهم الأدبية والثقافية، تأثر فتح للكتّاب آفاقا جديدة في مختلف كتاباتهم الأدبية، ولا شك منها السيرة الذاتية بوجه خاص.

وقد حاول كتاب السيرة الذاتية السعودية في هذه المرحلة مقارنة الكتاب العرب في تدوين حيواتهم والكتابة عن ذواتهم بطريقة تبعدهم عن مأزق المكاشفة والاعتراف؛ لصعوبة مواجهة المجتمع وضعف الجرأة الأدبية، جعلت من تلك النصوص الأولية أن تبدأ بداية ضعيفة، وهذه طبيعة كل بداية فن أدبي.

لقد كانت بداية نشرهم لأجزاء من سيرهم عبر الصحف والمقالات التي يكتبونها وقد حفزت الصحف هؤلاء "الكتاب على أن ينقلوا تواريخ ذواتهم الشخصية من الذاكرة الفردية إلى المدون النصي المقروء بوساطة اللغة، ومن التصور إلى الممارسة في الكتابة، عبر اشتغالهم المكثف على الذاكرة في إعادة تشكيل وقائع وجودهم ومغامراتهم المنقضية في الزمان والمكان"[٢].

---

(١) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب السعودي، عبد الله الحيدري، دراج المعارج الدولية للنشر، الرياض، ط١، ١٤١٨ه/١٩٩٨م، ص١٥٤-١٥٥.

(٢) أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع بن فرحان الشمري، النادي المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٨م، ص٥٣.

وقد استثمر كتاب السيرة الذاتية ثقافتهم ودرايتهم الصحفية في الحديث عن ذواتهم وطموحاتهم ونشروها في حلقات متواصلة ومن أبرزهم: أحمد السباعي، وحسن كتبي، وأحمد عبدالغفور عطار، وغيرهم. وقد اجتذب هذا الجنس الأدبي في بداياته الكثير من الكتّاب يجربون مسالك الكتابة فيه، تلك التجربة التي أغفلها النقاد؛ بوصف السيرة الذاتية لا تدخل في مجال اهتمامهم، رغم وفرة الكتب التي صدرت، فإن غالبية الدارسين وعارضي الكتب اقتصرت نظرتهم لها على أنها كتب جديدة كأي كتاب جديد يصدر، دون تحديد للجنس الأدبي، مما أوقع الدارس في حيرة عند اطلاعه على تلك الإسهامات(١).

وقد تأثرت السيرة الذاتية السعودية بالتحولات الثقافية التي طرأت على المجتمع والحياة في ثمانينيات القرن العشرين، من خلال ازدياد تواصل الأدباء والكتاب بغيرهم من أدباء وكتاب العرب في ابتعاثهم وعودتهم إلى أرض الوطن، واكتسابهم المعارف والعلوم وتأثرهم بالعلوم والآداب العالمية، فظهر جيل جديد من الكتّاب خريجي الجامعات السعودية والعربية والغربية، وهو جيل مختلف عن الجيل التقليدي المؤسس للسيرة الذاتية السعودية في التكوين الثقافي، الذي أسهم في اختلاف آليات الكتابة عن الذات(٢).

هذه التحولات ناجمة عن تحولات وعي كتّابها الثقافي والاجتماعي وسياقاتها التي شكلت خلفية إنشاء النصوص السير ذاتية في مرحلتها التأسيسية، ذلك أن تطور وعي كتّاب السيرة الذاتية بذواتهم في ذاتها وفي علاقتها بالمجتمع، مرتبط وثيق الارتباط بتطور هياكل المجتمع، من عادات

(١) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب السعودي، عبد الله الحيدري، ص١٧٠-١٧١.
(٢) ينظر: أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع فرحان الشمري، ص٥٤.

وتقاليد وأعراف أخلاقية وسلوكية وأنساق ثقافية وأدبية، خاصة في ضوء انفتاح المجتمع السعودي أكثر من قبل على روافد الثقافة العربية والعالمية وآدابها.

وقد تعمق شعور كتّاب السيرة الذاتية بإشكالية الهوية من خلال تضخم التحديات التي تواجهها الأنا والمتمثلة في أحداث كبرى شهدتها المنطقة، وتتمثل في حربي الخليج الأولى والثانية وغزو العراق عام ٢٠٠٣م، ما حفز العديد من الكتّاب إلى أن يلجؤوا إلى كتابة سيرهم الذاتية دفاعا عن هويتهم الفردية والجمعية والقومية، التي شعروا بأنها مهددة، كذلك تفاعلهم مع التغيرات التي طرأت على المجتمع العربي عامة، كالفقر والاستعمار، والمجتمع السعودي بخاصة، كالعادات والتقاليد، والعلاقات الاجتماعية، وتشكل هذه التغيرات موضوع الكتابة.

ثم تتالى ظهور النصوص السير الذاتية السعودية، ويمكننا إحصاء عدد النصوص الصادرة في مرحلة التأسيس، وتلك الصادرة في مرحلة التحول، التي شهد فيها جنس السيرة الذاتية السعودية نسقا تصاعديا، من تبين نوع من التراكم في النصوص، ففي مرحلة التأسيس بلغ عدد النصوص السير ذاتية الصادرة ما يقارب أحد عشر نصا، بينما بلغت النصوص الصادرة في مرحلة التحول ما يقارب ثلاثة وستين نصا، هذا التنامي في نصوص مدونة السيرة الذاتية السعودية "استجابة للنهضة التعليمية الشاملة التي تعيشها البلاد"[١].

وقد أسهمت حركة النشر، وخاصة النشر الخاص في تحقيق هذا التحول، من خلال تنامي نصوص المدونة السير ذاتية السعودية وتجاربها،

(١) السيرة الذاتية في الأدب السعودي، عبد الله الحيدري، ص٢٥٦.

ومن أبرزها: (سيرة شعرية) لغازي القصيبي عام ١٤٠٠هـ، و(رحلة الثلاثين عاما) لزاهر الألمعي عام ١٤٠١هـ، و(مشواري مع الكلمة) لحسن عبد الحي قزاز عام ١٤٠٣هـ، و(تلك الأيام) لعبد الفتاح أبو مدين عام ١٤٠٦هـ، و(تباريح التباريح) لأبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري عام ١٤١٢هـ، و(حياتي مع الجوع والحب والحرب) لعزيز ضياء عام ١٤١٤هـ، وغيرها من النصوص.

إن تواصل ظهور النصوص التقليدية علامة دالة على إحساس جيل الرواد من كتاب السيرة الذاتية بالخطر أمام جيل جديد من الأدباء السعوديين وكتاب السيرة الذاتية خاصة؛ لاستنادهم إلى روافد منفتحة على المنجز الغربي، مغايرة لتلك الروافد، التي اعتمدها جيل الرواد في النماذج العربية للنصوص السير ذاتية، في غفلة منهم على أن مجمل تلك النماذج السير ذاتية العربية للكتاب العرب، هي نصوص لجيل من الكتّاب نهل الثقافة الغربية وآدابها، وتأثر بتجارب كتابها ونصوصهم السردية عامة، والسير ذاتية خاصة، مثل: طه حسين، وتوفيق الحكيم، وعباس العقاد، ويحيى حقي وغيرهم[١].

(١) ينظر: أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع بن فرحان الشمري، ص٦٣.

المبحث الثالث- تعانق الذات بالمكان في سيرة (واستقرت بها النوى):

يعد المكان عنصرا مهما في حياة الإنسان؛ فهو الموضع الذي تدب فيه الحياة وتزخر فيه، ويشيد فيه الإحساس والارتباط بالوطن ما بالمواطنة، وينسج المكان من الحقيقة والخيال مما يضفي على الكتابة نوعا من المخاتلة والرمزية(١).

ويشكل المكان عنصرا محوريا في بنية النص السردي، الذي لا يقام إلا به، حيث يجسد المكان "الحاضنة الاستيعابية والإطار العام الذي تتحرك فيه الشخصيات وتتفاعل معه، وأي نص مهما كان جنسه الأدبي، لابد أن يتوافر على هذا العنصر ما دام الحكي هو الأساس الذي ينطلق منه ويعود إليه ويتمظهر من خلاله وبوساطة آلياته وقوانينه"(٢). وبدونه يفتقد المكان خصوصيته وأصالته(٣).

والمكان لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد حيث يتفاعل مع العلاقات المتعددة والمكونات الحكائية الأخرى للسرد ،كالشخصيات والأحداث والرؤى السردية وبفقده يغيب الدور النصي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد(٤).

---

(١) ينظر: الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦م، ص٥.

(٢) جماليات التشكيل الروائي، د. محمد صابر عبيد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٢٩.

(٣) ينظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٤ه/١٩٨٤م، ص٥.

(٤) ينظر: بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٢٩.

فعلاقة المكان بالأحداث تلازمية إذ لا يتصور النظر إلى الأحداث بمعزل عن الأمكنة التي تدور فيها(١). والمكان عنصر فاعل ومؤثر في الشخصية حيث يأخذ منها ويعطيها(٢)، كما أنه يحدد "الملامح العامة للشخصية وتميزها عن غيرها حيث الأمكنة تنتج شخصياتها المتمايزة المختلفة "(٣). وبالتالي فجميع الأجزاء المكونة للسرد تخبرنا عن الكيفية التي نظم بها المكان(٤).

ويشكل المكان في السيرة الذاتية أحد الأركان التي تقوم عليها العملية السردية، فهناك تلازم شرطي بين السيرة الذاتية والمكان؛ لأن السيرة سجل لحياة صاحبها، ومدونة لمسيرته فيها، مما يقتضي وجود مكان حاضن لتلك المسيرة، يحتويها ويؤثر فيها؛ بمراحلها وانعطافاتها المختلفة(٥).

ولا شك أن المكان في الرواية ليس المكان الطبيعي أو الواقعي، حيث يعتمد الكاتب الروائي على خلق كلمات تشير إلى المكان الخيالي بمكوناته الخاصة وأبعاده المتميزة(٦)، بخلاف المكان في السيرة الذاتية الذي يمتاز بمرجعه الواقعي في تاريخ حياة الكاتب وما عهد في ميثاقه السيرذاتي(٧).

---

(١) ينظر: المكان في رسالة الغفران: أشكاله ووظائفه، عبد الوهاب زغدان، دار صامد للنشر، صفاقس، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢٠.

(٢) ينظر: شعرية الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٧٠.

(٣) شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين، مطابع مؤسسة اليمامة، الرياض، ١٤٢١ه، ص١٠٤.

(٤) ينظر: بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ص٢٩.

(٥) ينظر: حكي الذات، د. محمد الدبيسي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٦ه/٢٠١٥م، ص١٥١.

(٦) ينظر: بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م، ص٧٤.

(٧) ينظر: أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع بن فرحان الشمري، ص١٩٣.

وواقعية المكان في السيرة الذاتية ليس هو المكان المعاش في الواقع بل بوصفه تجربة فنية، وهو حصيلة امتزاج الوقائع التاريخية بالوقائع الفنية. وعليه فإن المكان في السيرة الذاتية ليس مكانا جغرافيا صرفا بل هو مكان واقعي بالمفهوم الفني(١)، فكاتب السيرة الذاتية يعيد خلق المكان الواقعي بالكلمات بعد أن يضفي عليه شيئا من إحساسه به(٢).

والذاكرة وسيلة رئيسة عند كاتب السيرة الذاتية حيث يستحضر صور ماضيه ووقائع تاريخه الشخصي، وما لديه من تفاصيل وجزئيات(٣). وتقوم عمليات التذكر بانتقاء الأحداث الماضية التي ترسم صورة الذات، عبر تاريخ محدد، ممتزجة بظروف مختلفة، مع الاهتمام بخصوصية المكان والأحداث(٤).

وللمكان في سيرة حمزة المزيني وعي كامل منذ البداية وتحديدا من العنوان الرئيس (واستقرت بها النوى)، حيث يوحي بأهمية اختيار المكان كأحد عناصره، فالاستقرار يوحي بالأبعاد النفسية بعد حراكه مع الحياة ، واستخدام الفعل الماضي يحوي بين جنباته دلالات عدة، ومنها: الراحة التي أحس بها بعد طول عراك، والخبرة التي اكتسبها عبر مراحل حياته، كما يدل الجرس الآتي من حرف السين على الهدوء الذي أحس به الكاتب مؤخرا، فها هو يرسي بسفينته نحو بر الأمان بعد أن عاد إلى وطنه الأم، ويدل

---

(١) ينظر: سيرة جبرا الذاتية: في البئر الأولى وشارع الأميرات، خليل شكري هياس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص١٣٠.

(٢) ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، ص١٣٦.

(٣) ينظر: أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع بن فرحان الشمري، ص١٦٨.

(٤) ينظر: السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، أمل التميمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢١٠.

الربط بالضمير (بها) على التمازج التام بين الكاتب وسيرته التي تعد جزءا منه، أما التعبير بكلمة (النوى) فتعكس دلالات الغربة التي عاشها الكاتب، وأحس بمرارتها، وكأنه يريد من القارئ أن يشاركه إحساسه المتنوع بحسب المعتركات التي واجهها، وأثبت صموده أمامها، وهذا يعكس رؤية الكاتب في إرسال عدد من التوجيهات والإرشادات المضمرة داخل السبرة الذاتية.

ومما يؤكد إبداع الكاتب في ربطه العناوين الداخلية بالعنوان الرئيس، والتمازج والتلاحم بينها حيث ترد الدلالة المكانية في جملة العناوين الداخلية بكثافة ويتجلى ذلك في ما يلي: (المدينة المنورة)، (بئر برود)، (بيتنا)، (الدهليس)، (المدرسة الصناعية)، (المدرسة المتوسطة)، (المدرسة الثانوية)، (المسكن الأول في الرياض)، (الوصول إلى لندن والأيام الأولى فيها)، (بيت جديد)، (رحلة علمية لجمع مادة البحث)، (الوصول إلى أوستن). وقد ساعد ذلك على وصول القارئ إلى الأماكن وارتباطها النفسي به.

وللمكان حضوره في سيرة حمزة المزيني، فها هو يتحدث عن البيت الذي نشأ فيه وترعرع هو الملاذ الحقيقي الذي لا يغيب عن الذاكرة، فالبيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة، وهو مركز تكييف الخيال. وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين يوفرهما لنا البيت[١].

ولا شك أن البيوت والمنازل تشكل نموذجا ملائما لدراسة قيم الألفة ومظاهر الحياة الداخلية التي تعيشها الشخصيات، فبيت الإنسان امتداد له، كما يقول ويليك: "فإنك إذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان، فالبيوت تعبر

(١) ينظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ص٩.

عن أصحابها، وهي تفعل فعل الجو في نفوس الآخرين الذين يتوجب عليهم أن يعيشوا فيه"[١].

ويستحضر الكاتب البعد الدلالي لمسقط رأسه، الذي شكل ملمحا واقيا، وجسرا يعبر به إلى أهدافه، وحين يمعن الكاتب في سرد تفاصيل المكان الذي تربى فيه، فإنه يهدف من خلاله مدى ارتباطه الحميم بهذا المكان، ووفائه له بدليل أنه بقي محفوظا في ذاكرته بتفاصيله الدقيقة، وكأنه مدين له، وإن تحول إلى حياة أخرى، وبدا ذلك في حديث المزيني عن القرية، حيث تقع في ضاحية المدينة المنورة الغربية الجنوبية التي تقع على ضفتي وادي العقيق المشهور تاريخيا بهذا الاسم. وهو واد ارتبط بأحداث السيرة النبوية الشريفة وبالحج، والمكان الذي يركز عليه الكاتب هو الاهتمام بالكشف عن دلالات المكان تاريخيا، فضلا عن البعد الديني، وهو الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين نزل فيه: "أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك"... وكان فيه لبعض الصحابة رضي الله عنهم وبعض التابعين مزارع وقصور ما تزال بعض آثارهما ماثلة[٢]. ويجسد السرد قدسية المكان الذي ولد ونشأ فيه، حيث الشموخ والطهر، كما نجد الكاتب يضفي على المكان كل معاني التبجيل والتقدير، متحدثا عن فضائله ومآثره التي تبقى عبر التاريخ.

وقد كشف الكاتب عن المكان الذي انطبع به سكانه، حيث يفتخر بهم، لكونهم مؤتلفين كأنهم أسرة واحدة رغم انتماءاتهم المختلفة لفروع قبيلة

---

(١) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ص٤٣.

(٢) ينظر: واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٢٠.

حرب؛ فكانوا يتزاورون ويدخل بعضهم بيوت بعض، وإذا ما حدث سوء تفاهم يحلونه بينهم سريعا، بطرق لطيفة في أكثر الأحيان(١).

ويصحح حمزة المزيني بعض المفاهيم القاصرة، حيث إن المعهود عن الأطفال أنهم يظنون أن العالم هو المكان الذي نشأوا فيه فقط، ويرون أن حدود هذا المكان هي حدود الكون وليس وراءها شيء. وهذا ما يصدق علي الكاتب حيث كان يظن أن حدود الكون تنتهي جنوبا بجبل عير، وشمالا بجبل (الطويلة) وما اتصل بهما من جبال. وكنت أتخيل أني لو صعدت إلى قمة (الطويلة) الشاهقة لاستطعت لمس السماء ولكان بإمكاني أن أرى الرعد الذي أسمع هزيمه العالي المخيف في ليالي الشتاء عند سقوط الأمطار(٢). فالمكان عند الكاتب لا يحده حدود خارجية بل يتخطى ذلك من خلال الإحساس الأدبي الجارف.

والبيت والقرية من الأماكن التي لها حضورها عند الذات؛ لأنها تحمل طفولته، وتبقى في الذاكرة، حيث يرتبط بها الإنسان ويفكر دائما في العودة إليها، ولا ينسى تفصيلاتها الدقيقة، فكل شبر في البيت له عند الإنسان تاريخ وذكرى.

فنجد الكاتب يحمد أفضلية المكان الذي نشأ فيه وترعرع ، مجسدا البعد النفسي؛ لأنه يحمل طفولته ومنبت جسده، وروحه وحبه لأمه وأبيه وإخوانه، وينمو هذا الحب بالدفء والنقاء، وغالبا ما "يسعى كاتب السيرة لاستعادة زمن طفولته عبر الاشتغال المكثف على الذاكرة إلا أن نقل الشعور بالاستذكار لتلك الطفولة يعتبر عملية ذهنية معقدة مهما بدت في الظاهر

(١) ينظر: السابق، ص٢٤.

(٢) ينظر: السابق، ص٢٨.

مستقيمة تلقائية، بدءا من اختيار اللفظ المناسب مجازيا أو غير مجازي إلى تضمين الشعور الخاص بأهمية تلك الطفولة بالنسبة إلى مستذكر أطوارها"[١].

ونرى ذلك في سرد المزيني لبعض الأوقات التي عاشها فرحا سعيدا، والتي لم تغب عن ذاكرته رغم كتابة السيرة في وقت متأخر، فنراه يعبر بضمير الجمع:" كنا ننام فوق السطح في ليالي الصيف الممتعة حيث الهواء يهب علينا من المزارع المحيطة بنا فيلطف الجو. وكنا نستمتع بثغاء الأغنام في (الزريبة) الملاصقة لبيتنا، وكثيرا ما نصحو على ثغائها العالي"[٢].

ويحكي عن طبيعة الحياة الاجتماعية بداخل البيت حيث الدفء العاطفي، وتربية البيئة الهادئة التي تكسب المرء الراحة النفسية، وتكون غذاءه لفترات متأخرة، فكم عاش أوقات سعيدة خاصة في: "ليالي الشتاء حين تشعل أمي النار في (طشت) الغسيل ونتحلق حوله لنشرب الحليب بالزنجبيل أو الهيل، ثم تبدأ في رواية حكاياتها المشوقة الكثيرة وكان معظمها عن أحوال الناس في ديرتها (السدارة) أيام شبابها. ويتصل كثير من تلك الحكايات برعيها الغنم وغارات الذئاب عليها إما في (مفلاها) أو في (مراحها)"[٣].

ويحتفظ الكاتب ببعض جوانب التوجيه التي سعد بها، مسجلا القصص التي كان يسمعها من أمه في الطفولة وكانت تحمل الكثير من المعاني

---

(١) الحقيقة الملتبسة: قراءة في أشكال الكتابة عن الذات، محمد الداهي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م، ص٦.

(٢) واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٤٩.

(٣) واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٥٣.

اللطيفة، فكانت تسمعه قصص غارات (الذيب أبو أصبع) المخيفة على الناس وحكايات طويلة عن الخوف الذي كان يتهدد حياة الناس أيام حكم الأتراك وحكم الشريف بعد ذلك(١).

وفي هذا جانب توجيهي رائد يغذي جانب حبه لبلده، والحرص على التسليم لقيادته الحكيمة التي حققت الأمن والأمان، فنراه يذكر أهداف القصص التي كانت ترويها أمه له في زمن الطفولة "كانت تقصد بإيرادها تلك القصص توجيه أنظارنا إلى ما نحن فيه الآن من الأمن في حكم (ابن سعود)، وتحذرنا من الانخداع بالدعايات الموجهة ضد المملكة التي كانت تسمع عنها"(٢).

ولم يغفل المزيني في تسجيل سيرته البعد الدلالي للمكان في بناء شخصيته، ويعد مكان تلقي العلم جانبا مهما في حياته التعليمية، وما له من تأثير بالغ، فالمدرسة كانت بالنسبة له غذاء علميا وروحيا، وجانبا مهما في تفعيل نشاطاته، ففي المدرسة الصناعية كانت له تحولات متنوعة غيرت من وعيه الفكري والثقافي، فقد سرد هذه المرحلة المفصلية بالتفصيل، فيذكر أنه دخل تلك المدرسة ولا يعرف شيئا عن طبيعة الدراسة فكان يتنقل طوال السنة بين أقسام عدة من تخصصات مختلفة؛ بداية من قسم (الميكانيكا)، إلى قسم (الحدادة) ثم إلى قسم (الخراطة)... ولم يرتح للدراسة في المدرسة الصناعية بسبب تنقلي المستمر بين تلك الأقسام التي كانت تعج بروائح

(١) ينظر: السابق، ص٥٣.
(٢) السابق، ص٥٥.

الزيوت والأدخنة الكثيفة إضافة إلى صرير المكائن والآلات مما كان يضطر بسببه دائما إلى لف غترته على فمه وأنفه لتفادي الروائح وذلك الصرير[١].

وتعد هذه المرحلة من أصعب المراحل التعليمية التي مر بها؛ نظرا لغياب الاستقرار، ومعرفة الهدف، وفي هذا يرمي الكاتب إلى ضرورة تحديد الأهداف والعمل على الوصول إليها.

التقى الكاتب في هذه المرحلة بزملاء مختلفي الأماكن الذي يحملون عبقها، وكان لهم تكوينهم الثقافي والمعرفي الخاص، مما أدلى للتلاقح المعرفي والثقافي المتنوع والاستفادة المتبادلة، "وكان من زملائي في تلك المتوسطة، إضافة إلى الطلاب من المدينة وضواحيها، طلاب من قرى ومدن ونواح بعيدة من خارج المدينة تتبع إدارة التعليم بالمدينة؛ فجاء بعضهم من تبوك وأملج وضبا وبعضهم من تيماء، وأذكر من الأخيرين زميلين أحدهما اسمه دهام، ولا أذكر اسم الأخير، والآخر عطا الله الناجم. وكانت تعجبني لهجتهما الشمالية الجميلة... ومثل ذلك المزيج من الطلاب فرصة ثمينة لي في تلك الفترة التكوينية من حياتي لأتعرف ثقافات وعادات ولهجات مختلفة يصعب جمعها في مكان واحد في تلك الفترة. واكتسبت من خلال ذلك المزيج خبرات جيدة بتقاليد المناطق المختلفة أغنت حياتي وبقيت آثارها إلى الآن"[٢]. يسجل الكاتب طبيعة المكان وأثره الإيجابي عليه، والعمل على الاستفادة منه بشتى الطرق.

وتمثل المرحلة (الثانوية) جانبا مهما في حياته التعليمية، وما لها من أثر بالغ، ويمعن القول في الحديث عن الأشخاص الذين كان لهم تأثير مباشر

---

(١) ينظر: واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص١٢٦.

(٢) السابق، ص١٣٠.

في مساره التعليمي، فيذكر أن أحد المدرسين الذين التقى بهم في أماكن التعليم وكان له أكبر الأثر، وكساه بألطف الأوصاف؛ لتميزه العلمي وأدائه الرائع في التدريس، وهو عبد المعين الملوحي. وكان أديبا رشيق العبارات ذا ذوق فني عال ومعرفة عميقة باللغة العربية، وكان بارعا في تدريسها مما جعلني أتعلق بها. وكان لتشجيعه لي أكبر الأثر في محبتي... واخترت مسار اللغة العربية التي حببني فيها الأستاذ عبد المعين الملوحي، وأهلتني له قراءاتي الحرة المتنوعة، لاسيما في الأدب [١]. الكاتب هنا يسجل شهادته، وإعجابه بما كان له الأثر المباشر في اختيار تخصصه، وكساه بثوب عبارات أدبية زادت من شهادته إشراقا وجمالا واعترافا بالجميل والفضل.

ويستذكر الكاتب المكان الذي يغترب عنه، وما يحمله من عبق عاطفي شديد، والارتباط المكاني الذي نشأ فيه وترعرع فيه علميا، والانتقال إلى أماكن الغربة ومشاعرها الأليمة بمعناها الحسي والمعنوي والنفسي، وهي ملامح يشترك فيه الناس جميعا وإن اختلفت نسبة التعلق بحسب النشأة والانتماء للمكان، والكاتب هنا يسجل إحساسه، ويسترجع ذكرياته الماضية المرتبطة بالأماكن : "وكنت أحيانا أراجع مسار حياتي فأشعر بالندم على أني غادرت المدينة أصلا لشعوري بأني كشجرة اجتثت من جذورها لتغرس مرات متوالية في بيئات غريبة عليها. ولا أفشي سرا زيادة على ذلك إن قلت إني فقدت الانتماء الحقيقي للمكان أيضا... إني لم أعد أشعر بزخم الانتماء إلى المدينة المنورة نفسها كذلك. وربما يعود ذلك إلى أني فقدت كثيرا من الروابط القوية التي كانت تشعرني بحرارة ذلك الانتماء. وأولها

(١) ينظر: واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص١٦٨.

وفاة أمي وأخوي حامد وخلف وأختيّ سرا ومريم وخالي غيث الذين كانوا يشعرونني بحرارة الانتماء والاستمرار"[١]. الكاتب وظف هذا الجانب في سيرته معبرا عن مشاعره تجاه وطنه العزيز، وسجل الصعوبات والآلام النفسية التي عايشها بعد غربته عن المدينة المنورة، مستخدما اللغة الأدبية الجاذبة للقارئ.

ولا شك أن هناك دلالة عميقة بين المكان في النص وفعل الحكي، وتعانقه مع الذات المعبرة، وقد تجلى لك ذلك في تكثيف الدلالات المنبثقة من تصوير أبعاده الحسية والمعنوية.

وثمة ارتباط بين الكاتب والمدينة المنورة، وبدا ذلك من خلال إيمانه العميق، وقد تبدى ذلك في حزنه وندمه على المغادرة حيث ترك أمه وأبيه حتى بلغ من أثر البعد المكاني أن كان يفقد انتماءه، وهي مبالغة مقبولة في سبيل التعبير عن العواطف والمشاعر النبيلة.

وكانت مرحلة الجامعة نقطة تحول جوهرية عند الكاتب، وقد سجل فيها شهادات على الطريق لأساتذته الذين كانوا سببا في أثر المكان في تحوله الفكري والثقافي والمعرفي، والتخفيف من عاداته وممارساته الحياتية، فدراسته على يد الدكتور الحازمي في تدريسه الأدب في الجامعة والتي كان يخرج فيها من النظر إلى النصوص الأدبية على أنها مادة ميتة لتصبح وسيلة للتخفيف من المحافظة الفكرية والنزعة التقليدية، وكان هذا بمثابة أداة فاعلة في القراءة والوعي وآليات التعامل مع الأشياء المحيطة وتغيرت نظرته لدراسة الأدب بل إلى الأمور كلها بأغلال جامدة مملة. وبدأت

---

(١) السابق، ص١٨٠.

منذ تلك السنة الفارقة في تنويع قراءاته التي فتحت له منافذ فكرية أخرى أكثر اتساعا وأكثر تحررا في النظر إلى الحياة والناس(١).

وفي هذا تسجيل لبعد توجهي عميق، وهو طبيعة أداء الأستاذ في الجامعة، وتفعيل المكتسبات التي تؤثر بشكل إيجابي على طلابه، وهذا هدف رئيس من كتابة السيرة حيث تنوع المحطات والوقفات والأهداف، تبعا لتغير الأماكن.

حفلت مرحلة الانتقال المكاني (الابتعاث إلى بريطانيا)، بتفصيلات مهمة بدأت منذ أيامه الأولى وتجاربه في السكن: "ولما ذهبت إلى المعهد وجهتني إدارته للسكن مع سيده مسنة في أحد أحياء لندن البعيدة... والأغرب من ذلك أنها ألصقت على جدران ممرات البيت ملصقات تحمل تعليمات وتحذيرات كثيرة... ومن تلك القواعد المهمة عدم الاستحمام أكثر من مرة في الأسبوع، والمشي في البيت برفق حتى لا تحدث جلبة، وغير ذلك من التعليمات التي لو نفذتها فعلا لكان ذلك المسكن قبرا أو سجنا"(٢).

ويجسد الكاتب صورة التحول التي حدثت له بسبب طبيعة المكان والأسرة التي عاش معها لتعلم اللغة، لكنها كانت بالنسبة له تجربة حيث التغيير الذي لم يتعود عليه، فالمكان صنع المفارقة المعنوية بين حياته في السابق والحياة الحالية بسبب الحزم الذي لم يتعود عليه.

وهناك تجربة أخرى له في السكن حيث انتقل من بيت إلى بيت، وتجسيد التحول الإيجابي بهذا التغيير المكاني: "وبعد أيام قليلة ذهبت إلى إدارة المعهد وطلبت منهم نقلي من بيت تلك السيدة، فوجهوني إلى منزل

(١) ينظر: واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٢٠٥.
(٢) واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٢٤٨.

سيدة أخرى كان يسكن معها عدد كبير من الطلاب من مختلف أنحاء العالم. وارتحت كثيرا في ذلك السكن نظرا لذلك الجو العالمي، وللطف تلك السيدة وفهمها للثقافات المختلفة"[١]. وهو تنوع طبيعي ناتج عن طبيعة الثقافة والتقبل وبناء الذات.

ويعقد الكاتب مقارنة عن الأمن في أمريكا وبريطانيا أثناء رحلته للدراسة في أمريكا، "ولما رجعت إلى غرفتي في الفندق (شغلت) التلفزيون فإذا بإحدى القنوات تعرض تقريرا استقصائيا مصورا عن (تايمز سكوير) نفسها التي كنت أتجول فيها قبل قليل. وكان التقرير يعرض بالتفصيل ما يحدث في هذا المعلم السياحي من جرائم مخيفة كالسرقة والنشل والنهب والقتل وقبائح أخرى كثيرة لم أكن أتصور حدوث مثلها بتلك الكثافة، ويحذر السياح وينبههم إلى أخذ الحيطة عند التجول فيها... وتذكرت عندها الأمن الذي تتميز به لندن آنذاك؛ إذ يمكن أن يسير فيها الإنسان ليلا أو نهارا من غير أن يتعرض لأي مشكل أمني"[٢]. وهذا أمر لافت لنظر الكاتب الذي لم يغب عنه، فقد استخدم المقارنة كصورة من صور التعبير الأدبي الراقي، وإبداء رأيه بالأدلة.

أما تجربة السكن في أمريكا، والتحول الإيجابي النابع من الأماكن الي استقر بها مؤخرا حيث الراحة النفسية والجسدية في الوصول إلى الهدف المنشود بصورة سهلة، وكان قد وظف أسلوب المقارنة، واسترجاع الماضي غير المرغوب: "ولما أنهيت تلك الإجراءات وإذا بطالب سعودي يقبل عليّ ويحييني ويرحب بي بحرارة... وبعد تبادل التحية سألني إن كنت استأجرت

(١) واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني ص٢٤٩.

(٢) السابق، ، ص٢٩١.

شقة أولا. فأخبرته بأن هذا هو اليوم الأول لي في أوستن. فاصطحبني في سيارته للبحث عن شقة، فوجدنا من غير عناء شقة قريبة من الجامعة تتكون من غرفة نوم وصالة واسعة ومطبخ وحمام، ومؤثثة تأثيثا كاملا لا ينقصه إلا بعض اللوازم الشخصية... وراقت لي تلك الشقة وأبديت لصديقي الجديد رغبتي في استئجارها لأنها تحقق لي ما كنت أتطلبه في المسكن وزيادة. وكانت تدور في ذهني حينذاك ذكريات التعب الذي عانيته في البحث عن سكن في لندن. وهي معاناة يعرفها كل من درس أو سكن في لندن"[١].

يستحضر الكاتب بما لديه من قدرة فنية وإبداعية وأسلوب القص الجاذب للقارئ حالته النفسية المقبولة بعد حصوله على الماجستير من أمريكا بعد فقدان التمازج الدراسي، وهذا من فعالية المكان، وتنوع الأجواء العلمية، فقد أكد له أحد الأساتذة أنه لس غبيا! وأنه يستطيع مواصلة دراسته العليا، وأن ما حدث له في قسم الشرق الأوسط في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن لم يكن بسبب عدم مقدرته على التحصيل بقدر ما يعود إلى طريقة الدراسة في ذلك القسم[٢].

يستعيد الكاتب أبعاده النفسية، وقدرته على التحصيل الدراسي في سفره لأمريكا، ويرجع تفوقه إلى آليات التدريس، وطريقة تحصيل المعلومة والمتابعة الحثيثة، من قبل الجامعة للطلاب، وهو أمر راقَ له، وساعده في تحصيله العلمي. وهذه رسالة من الكاتب إلى ضرورة توظيف الآليات التي تُكسب الطالب بعدا علميا متميزا، وتساعده على التحصيل والتفوق.

---

(١) ينظر: واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، ص٢٩٤.

(٢) السابق، ص٣٠٧.

وبعد حصوله على الدكتوراه، وإنهاء رحلته التعلمية، يرنو الكاتب إلى موطنه الأصلي المدينة المنورة، حيث يعود بذكرياته الأليفة، والأماكن التي اعتاد زيارتها والعيش في كنفها، ونلحظ جميل الوصف، وجمال النسج في احتفال أهله بعودته لوطنه الحميم، حيث المتعة والراحة النفسية المجتلاة من الأماكن التي تربى فيها.

الخاتمة

يشغل المكان منزلة رفيعة في النص السردي، فقد لاحظ النقاد فعاليته في الخطاب الإبداعي المتنوع، وأصبح عنصرا مؤثرا في النص الإبداعي، وبدا ذلك واضحا في السيرة الذاتية السعودية، وقد توصلت الدراسة إلى ما يلي:

كان لحضور المكان أثره الفاعل في السيرة الذاتي لدى المزيني من خلال مراحل حياته، وبيان أثره اجتماعيا ونفسيا وعاطفيا وفكريا، كما كان للذاكرة دور مهم في استرجاع الماضي، ورسم ملامح المستقبل على الجانب الفردي أو الجمعي، وحسب المراحل الحياتية المختلفة، والتجارب المتنوعة في كتابة السيرة الذاتية لدى المزيني. كما أن الفضاء المكاني المتنوع حضوره في سيرة الكاتب، وقد تجاوز حدود الحيز الجغرافي إلى مناطق الإبداع، واكتسب المكان حيوية ضمن عناصر السرد الأخرى.

وتعد كثرة الدوافع المقصودة عند الكاتب مركزا للاحتفاء بالأنا وتسجيل حالته النفسية، وشعوره بالغربة والألم، ورغبته في التميز والبحث عن بناء الذات، وإثبات دورها في الحياة، والقدرة على تخطي الصعوبات فضلا عن اللذة الفنية الدافعة للكتابة، وبقاء أثره ومتعته في تسجيل ذكرياته المتنوعة، ورغبته في اطلاع المتلقي على تجاربه الحياتية، وإبراز عواطفه وأشجانه وآلامه، ورصد للأحداث التاريخية التي لاحقته أثناء كتابة السيرة، وتعد سيرة الكاتب شهادة على العصر الذي عاش بتقلباته المختلفة، وميوله لنقل خبراته للآخرين ونصحهم.

بدت الأبعاد الإيحائية والرمزية في كتابة المزيني لسيرته، ووصلت للمتلقي بالصورة التي قصدها حيث تعددت الأهداف التوجيهية والاجتماعية من خلال الأماكن التي ركز عليه الكاتب في سيرته.

امتلك الكاتب أسلوبا أدبيا أخاذا وعرض سيرته في أسلوب القص الممتع، واللغة الأدبية الراقية، والأسلوب الأخاذ، ممسكا بحس القارئ فلا يستطيع ترك العمل الأدبي إلا بعد الانتهاء منه فضلا عن الإفادة من الخبرات المتنوعة.

رصد الكاتب صور التحول المتنوع عبر الأماكن التي ركز عليه في سيرته، بداية من بيت الطفولة والنشأة مرورا بمراحل التعليم المختلفة، ثم الانتقال إلى الخارج زمن الابتعاث والحصول على الدرجات العلمية من بريطانيا وأمريكا.

نجح الكاتب في تسجيل تجاربه الشخصية التي التصقت بالمكان، وكأنه شريك له في العمل الإبداعي حيث يعكس من خلال أبعاده النفسية وتجاربه العلمية، وعمله الأكاديمي.

بدا التمازج واضحا بين عنوان السيرة والعناوين الداخلية مما يدل على براعة في اختيار العناوين المرتبط بالنص السردي، مما كان له الأثر البالغ في استمالة القارئ لقراءة السيرة، وربط العنوان الرئيس بالعناوين الداخلية التي تلتقي بشكل فاعل مع العنوان الرئيس.

التوصيات:

تعد هذه المدونة وعاء فكريا متميزا، وتحتاج إلى دراسة في ضوء المنهج الموضوعاتي؛ لكونه يسهم في الكشف عن الأفكار والدلالات والظلال المختلفة، أو مناهج نقدية حديثة أخرى.

المصادر والمراجع

- أجناسية السيرة الذاتية السعودية، جزاع بن فرحان الشمري، النادي المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٨م.
- أدب السيرة الذاتية، د. عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩١م.
- بداية النص الروائي، د. أحمد العدواني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١١م.
- بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٩م.
- تحليل النص السردي، محمد بوعزة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٤١هـ/٢٠١٠م.
- تشكيل المكان وظلال العتبات، معجب العدواني، نادي الأدبي الثقافي بجدة، ط١، ٢٠٠٢م.
- تصورات نظرية في شعرية المكان، ياسين النصير، شؤون أدبية، السنة ٧، ربيع، ١٩٩٣م.
- جماليات التشكيل الروائي، د. محمد صابر عبيد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٨م.
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- الحقيقة الملتبسة: قراءة في أشكال الكتابة عن الذات، محمد الداهي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
- حكي الذات، د. محمد الدبيسي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٦ه/٢٠١٥م.
- الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦م.
- السرد والتاريخ والتخييل، د. نور الدين بنخود، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٣٧ه/٢٠١٦م.
- السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، أمل التميمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م.
- السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية، د. عائشة الحكمي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٦ه/٢٠١٥م.
- السيرة الذاتية في الأدب السعودي، عبد الله الحيدري، دراج المعارج الدولية للنشر، الرياض، ط١، ١٤١٨ه/١٩٩٨م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. شعبان عبد الحكيم، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٥م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، فليب لوجون، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤م.
- السيرة الذاتية: جورج ماي، تعريب: د. محمد القاضي د. عبد الله صولة، نادي أبها الأدبي، أبها، ط١، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

- السيرة الذاتية: مقاربة الحد والمفهوم، د. أحمد آل مريع، د.ن، الرياض، ط٥، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام، شكري المبخوت، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م.
- سيرة جبرا الذاتية: في البئر الأولى وشارع الأميرات، خليل شكري هياس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط.
- شاعرية المكان، سامي المنصوري، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- شعرية الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.
- شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين، مطابع مؤسسة اليمامة، الرياض، د.ط، ١٤٢١هـ.
- عبقرية الصورة والمكان، طاهر عبد مسلم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.
- عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، د. محمد الباردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.
- فن السيرة، د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- القصيدة السيرذاتية: بنية النص وتشكيل الخطاب، د. خليل شكري هياس، عالم الكتب الحديث، عمان، ط١، ٢٠١٠م.

- كتابة الذات: دراسات في السيرة السعودية، د. صالح الغامدي، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣م.
- معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٠م.
- المكان في رسالة الغفران: أشكاله ووظائفه، عبد الوهاب زغدان، دار صامد للنشر، صفاقس، ط٢، ١٩٨٥م.
- واستقرت بها النوى، حمزة بن قبلان المزيني، دار مدارك للنشر، الرياض، ط٢، ٢٠٢١م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٤١٠٩
٢-	Abstract	٤١١٠
٣-	المقدمة	٤١١١
٤-	المبحث الأول- السيرة الذاتية: المفهوم والدوافع	٤١١٤
٥-	المبحث الثاني- السيرة الذاتية السعودية: البداية والتطور	٤١١٩
٦-	المبحث الثالث- تعانق الذات بالمكان في سيرة (واستقرت بها النوى):	٤١٢٤
٧-	الخاتمة	٤١٣٩
٨-	المصادر والمراجع	٤١٤١
٩-	فهرس الموضوعات	٤١٤٥